

المحاضرة الثالثة: دور الوعي الثقافي والحضاري في التصدي للغزو الفرنسي للجزائر.

وطأت أقدام المستعمر الفرنسي الغاشم أرض الجزائر يوم 05 جويلية 1830م بعد حصار دام ثلاث سنوات، وفي اليوم الموالي للاحتلال تم إنزال الأعلام ورايات الداى من كل الأماكن ليحل محلها العلم الفرنسي، فأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب القساوسة في المنابر معلنين فتح أبواب المسيحية على شاطئ أفريقيا في وقت غادر فيه الداى حسين وحاشيته - بعد عزله من طرف الجيش الفرنسي وإجباره على الاستسلام- أرض الجزائر لينتهي بذلك الوجود العثماني فيها والذي دام قرابة 326 سنة¹.

قبل الحديث عن الوضعية التي آل إليها الجزائريون في كل المجالات بعد الاحتلال- وخاصة وضعية التعليم والتي يُعد الركيزة الأساسية لقيام أي مجتمع- وجب التذكير والإشارة إلى أن العثمانيين لم يهتموا به اهتماما كبيرا، ودليل ذلك أنه لم تكن لهم وزارة للتعليم ولا أي مؤسسة مكلفة بهذا القطاع الهام والحساس، حيث تم ترك الميدان مفتوحا للأفراد والجماعات والزوايا والمساجد لتعليم أبناء الجزائريين اللغة العربية وحفظ القرآن، بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى الشرعية وقواعد اللغة والنحو وغير ذلك، حيث تم تكليف معلمين مختصين من أجل التعليم وتوفير كل وسائل العيش الكريم، وبالتالي فإن الأتراك اهتموا بهذا الجانب ودليل ذلك اعتراف الجنرال "فاليري" عام 1834م بأن وضعية التعليم في الجزائر كانت جيدة قبل التواجد الفرنسي².

لعبت الزوايا دورا هاما في توعية وتعليم الجزائريين، حيث وفرت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية و في أوساط القبائل وجهازها تجهيزا جيدا، لكن الأمر اختلف تماما بعد الاحتلال، حيث اختفت تلك المظاهر وحطمت بعض المدارس والمساجد، وأتلفت الكثير من المرافق التعليمية نتيجة انعدام الصيانة وتحويل أغلبها إلى مصالح عمومية، وأسندت بذلك مصلحة التعليم العام وإلى غاية 1848م إلى وزارة الحربية والتي اقتصت بهذا المجال الحيوي، حيث سيرها مفتشان أحدهما للتعليم

¹ - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص100.

² - بن ترزي خير الدين، التعليم في الجزائر خلال فترة الاحتلال، حوليات التاريخ والجغرافيا، مج04، ع07، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، 2013، ص103.

العام والثاني للمدارس الابتدائية تحت إشراف الوالي العام إلى غاية 07 و08 سبتمبر 1848 أين تم ربطها بوزارة التعليم العام وإنشاء أكاديمية الجزائر¹.

اتخذت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بتاريخ 08 سبتمبر 1830م قرارا تم بموجبه الاستيلاء ومصادرة كل أملاك الوقف تنفيذًا لكل سياساتها الرامية إلى محاربة وضرب الحركة العلمية والثقافية في الجزائر، وذلك بمحاربة المدارس التعليمية وتجهيل الشعب، لأنها رأت بأن الثقافة والعلم بالنسبة إليها هو الحصن المنيع والصلب الذي سيقف أمامها وضد كل مظاهر السيطرة وسياسة الفرنسة والتنصير والتجهيل.

وفي هذا الإطار تم مراقبة التعليم الديني والزوايا وتحديد عدد المدارس القرآنية، كما راقبت رجال الدين والعلماء والفقهاء الأحرار وفرضت رقابة حتى على فريضة الحج، ولم تكتف بهذا فقط بل كونت طبقة رسمية من رجال الدين الإسلامي أوكلت إليهم مهمة إدارة المساجد ومراقبة عمل الزوايا الحرة، وإلزام رجالها بالتعاون مع الاستعمار ومع إدارة الشرطة الفرنسية، وكل ذلك من أجل الحد من أي حركة قد تسهم في تنامي التعليم الإسلامي ونشر اللغة العربية، فأدى ذلك إلى ضياع التعليم وضياع هيبة رجاله ونفوذهم وفقدان احترامهم، وهو نفس الشيء الذي حصل مع رجال الزوايا المتعاونين معها².

ومن أجل الضرب بيد من حديد ومنذ الوهلة الأولى وفي إطار سياسة الفرنسة، غيرت الإدارة الاستعمارية أسماء المدن والقرى الجزائرية وعوضتها بأسماء أوروبية مسيحية، وبأشهر ذلك الكاردينال لافيغري وغيره من القساوسة عملهم بمختلف الوسائل المتاحة لهم، وتم التركيز على الفئة الهشة والعناصر الفقيرة نظرا لكثرتها وسهولة السيطرة عليها، هذا إلى جانب بعض العناصر الأخرى ضحايا المجاعات والأوبئة المختلفة سواء العربية أو حتى القبائلية، فعمدت فرنسا إلى

¹ - عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900م)، موفم للنشر، الجزائر، 2010، ص222.

² - يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص40.

محاولة تتصير القبائل خاصة بدعوى أن أصلهم من بلاد الغال الأوروبيين، ولكن تلك السياسات فشلت وذلك باعتراف الإدارة الفرنسية نفسها¹.

اتجهت السياسة الفرنسية منذ البداية إلى محو كل ما له علاقة بتاريخ الجزائر وفي كل المجالات، وركزت على الجانب الثقافي وكل ما يرمز للجزائر في هذا الجانب على اعتبار أن الثقافة عامل مهم وركيزة أساسية في قيام وتقدم الأمم، فأدى بذلك قادة الحملة الفرنسية وجنودها إلى الاستهتار بالقيم الإسلامية والمؤسسات الدينية والأخلاق العامة والآثار التاريخية، ومن جملة ذلك عمدوا إلى سرقة ونقل مدفع (بابا مرزوق) من الجزائر إلى فرنسا، لأن هذا المدفع كان يرمز إلى أشياء عدة بالنسبة لهم، فهو رمز القوة والذكورة، وما عملية نقله إلا لصوصية عسكرية وثقافية وغباء فرنسي، لأن الجزائر لم تخلوا من رمزها الأقوى والأكثر فحولة، وهم الرجال والنساء الذين قاوموها فيما بعد بكل جرأة وقوة وشراسة ليس لها نظير².

بالنسبة للاستعمار الفرنسي فإنهم وبحسب ظنهم أتوا بحضارة راقية ليعلموها للجزائريين في مختلف المدن الجزائرية، وفي الفرق العسكرية، فكانت أولى دروسهم في قاعة التعليم هي تلقين مظاهر الحضارة الأوروبية الفرنسية، فكثيرة هي المؤسسات الدينية والتعليمية التي تحولت إلى المسيحية أو تم تهديمها أو إعطائها للجيش أو بيعت كأموال للأوروبيين للتصرف فيها، فمساجد بقيت كما كانت وأخرى حولت إلى كنائس، و نذكر منها جامع كتشاوة، جامع القصبة، جامع بتشين، وهناك مسجد القائد علي الذي وُهب إلى جمعية أخوات القديس جوزيف³.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أفضع ما قامت به فرنسا أيام الاحتلال الأولى هو تهريب عظام الموتى المسلمين من الجزائر إلى فرنسا ومرسيليا بالتحديد لاستخدامها في فحم العظام وتبييض السكر، وقد تم إثبات ذلك من خلال تقارير بعض الأطباء (الدكتور رسيقو)، وما كتبه بعض الكتاب الفرنسيين أمثال مارسيل ايمريت⁴.

¹ - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 41.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص 69.

³ - المرجع نفسه، ص 81.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 89.

إن اعتراف الدوق دومال: "... استولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى ثكنات ومرابط خيل..."، ما هو الا دليل واضح وصريح على الاعتداء الشنيع والغازم على المراكز الثقافية بالجزائر، والتي كانت تسهر على حركية العلم والمعرفة¹.

وزاده فضا عة وجرما جاء في أحد التقارير الفرنسية للجنة القروض الاستثنائية سنة 1847م، لقد تركنا المدارس تسقط وشتتهاها، لقد أطفأت الأنوار من حولنا، ومعنى ذلك لقد تم تحويل المجتمع المسلم العربي المتعلم إلى مجتمع أكثر جهلا وبربرية مما كان عليه قبل معرفتها². والسؤال المطروح:

أين هم علماء ومثقفي الجزائر في تلك الفترة، وما هو دورهم الحضاري في التصدي للغزو الفرنسي ومحاربة الثقافة التي جاء بها الاستعمار الفرنسي؟

وجد الجزائريون أنفسهم أمام الوضع الجديد بعد الغزو الفرنسي في مواجهة أعتى وأشرس استعمار فوق سطح المعمورة، حيث لم يستثنى أحدا في عملية التصفية والإبادة الجماعية وطمس هوية الشعب الجزائري الرفض للمسار الجديد التي أرادت من خلاله السلطة الفرنسية السيطرة على مقومات الأمة ووجدانها، لكنه ورغم ذلك جوبهت سياساتهم برفض تام لكل المراوغات والأساليب التي تم اللجوء لها لأنها وجدت أمامها شعبا متمسكا بهويته الوطنية ومُجبرا على مقاطعة الثقافة الجديدة في جميع مظاهرها، وخير دليل على ذلك ما صرّح به الأمير عبد القادر بعد أن قاد مقاومة ضد فرنسا في الغرب الجزائري منذ بداية الاحتلال وإلى غاية سنة 1847م، حيث يقول: "واجبي كحاكم مُسلم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين، لذلك فتحت المدارس في المُدن وبين القبائل وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون الصلوات، ويحفظون تعاليم القرآن، وفروضه، ويعرفون جيدا القراءة والكتابة"³.

¹ - بوعزة بوضرساية، سياسة فرنسا البربرية في الجزائر (1830-1930م) وانعكاساتها على المغرب العربي، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2010، ص130.

² - بن ترزي خير الدين، مرجع سابق، ص105.

³ - سفيان لوصيف، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، المظاهر والانعكاس، المجلة التاريخية الجزائرية، ع03، الجزائر، 2013، ص152.

لقد خاب أمل فرنسا ولم يتحقق ما توقعته من سياسات متواصلة من أجل تنصير الجزائريين وتحييدهم عن هويتهم، وقد عبر عن هذا الفشل الذريع الدكتور غوستاف لوبون (Gustave Lebon) عالم الاجتماع الفرنسي بقوله: "... فأما ما يخص العرب فقد استشهدت بأربعة آلاف يتيم الذين تولى أمرهم الكاردينال لافيغري، فعلى رغم تربيته لهؤلاء تربية مسيحية بعيدة عن كل تأثير عربي، رجع أكثرهم إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد¹.

في مقاومته للاستعمار - ونظرا لأنه ابن الطريقة القادرية وتنوع تحصيله العلمي في مختلف العلوم مستفيدا من دراسة القرآن والسنة - اجتهد الأمير عبد القادر في حفظ الكتب وأمر جنوده بالمحافظة عليها بمكافأتهم ومكافأة كل من أحضر له كتاب مهما كان نوعه، كما اهتم شخصيا بتكوين الطلبة فقال: "كنت أشعر شعورا قويا بأهمية العلم، بدرجة أنني مرات عديدة عفوت عن بعض الطلبة الذين استحقوا الموت، لأن إعداد عالم حقيقي في بلادنا يتطلب وقتا طويلا، ولأن النخلة تسهل عملية قطعها وتعويضها بأخرى، ويستغرق وقتا طويلا للحصول على ثمرة النخلة الجديدة، وقد بذلت مجهودات ضخمة لتسهيل الدراسة على الطلبة وتمكينهم منها ولتكوين الإطارات².

دافع الجزائريون عن عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم من خلال التمسك بتعليم الأطفال وعن ذلك ذكر الرحالة الألماني "مالستان" في كتابه "صور من التقاليد" الذي نشره سنة 1869م فيقول: "بأن القاعدة العامة الجاري بها العمل في الأوساط الجزائرية التي تحترم نفسها هي أن جميع الأسر الكريمة تصر كل الإصرار على أن يصل كل طفل إلى درجة طالب علم على الأقل³.

خلال شهر جانفي 1845م وقعت انتفاضة الطرق الصوفية ضد الاحتلال، شاركت فيها الطريقة القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبية وفروعها، وكانت قبيلة أولاد رياح القاطنة جنوب مدينة تنس من القبائل التي شاركت في الانتفاضة، فغزاها بليسيية وحطم أملاكها وأحرق ما وُجد

¹ - رايح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص48.

² - محمد بن شوش، المقاومة الثقافية في الجزائر (1830-1870م)، مجلة المصادر، مج11، ع19، الجزائر، 2009، ص54.

³ - عبد الرحمان بن محمد الجبالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص175.

فيها، حيث اتفقت كل الكتابات أن مصير السكان البالغ عدده قرابة الألف فرد كان مصيره الموت اختناقاً بالدخان¹.

قاد علماء الجزائر ورجالاتها معارك عدة ضد الاستعمار في مجالات تخصصهم، فمنهم من تولى الفتوى والوظائف الدينية الأخرى من أمثال حميدة العمالي، وعلي بن الحفاف، ومحمد غرناوط، وعلي بن سماية، والذين تلقوا تعليمهم على يد محمد الصالح الرضوي القادم من المشرق باسم الجهاد، ومنهم من وقف في وجه بيجو عدو الدين واللغة والعربية والإسلام، فظلت بذلك المدارس القرآنية تمارس مهامها السري المتمثل في تعليم القرآن الكريم وبوسائل ضعيفة، كما عارض المفتي الكبابي إدخال اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية مُقترحاً بذلك فتح مدارس أخرى خاصة باللغة الفرنسية يؤمها من يشاء من المسلمين، كما تصدّى هؤلاء لمغتصبي الأملاك المقدسة مثل أوقاف مكة والمدينة، بل ونقموا نقمة شديدة على تهديم المساجد وإهانة المقابر والانتقام من اللغة والدين الإسلامي في عملية صليبية ممنهجة قادتها فرنسا ضد الفرد والأرض².

لم يقف الجزائريون مكتوفي الأيدي أمام الهجمات الشرسة الفرنسية لإركاغهم وفرنستهم، بل تحدوا السلطات الاستعمارية وواصلوا تعلمهم العربي والإسلامي، حيث ذكرت أحد التقارير عن بجاية وما حولها سنة 1840م أن مداشرها كان لها طالبا يُحسن اللغة العربية، ويقوم بوظيفة إمام مسجد ويُعلّم الأطفال الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، ويشترك أهل القرية في تسديد أجره، وكان بعض هؤلاء الطلبة والذين استفادوا من تلك الميزة أن حكموا بالصلح بين الناس، فاشتهر هؤلاء المرابطون بالورع والتقوى في أماكن تواجدهم متخذين من الزوايا أماكن لتلقين أهلهم، ومن أبرزها زاوية شلاطة ذات السمعة العلمية العالية والتي تجاوزت حدود الجزائر، إذ أن الهدايا كانت تأتيها من فاس وتونس وإسطنبول³.

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، مرجع سابق، ص229.

² - المرجع نفسه، ص.ص302-303

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1900-1954)، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص29.

نشطت الكثير من الشخصيات الجزائرية البارزة في محاربة الغزو الثقافي الفرنسي، فاستخدمت كافة أسلحتها العلمية والثقافية إلى درجة أنها تعرّضت للتصفية في أغلب الأحيان، والنفي في أحيان أخرى.

من بين تلك الأسماء نشط الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش كما يعرفه العلماء، حيث ورث عن جده حب العلم واكتسب بجهده وكفاحه علما واسعا وثقافة كبيرة وأدبا مرموقا ورفيعا، فبدأ معركته في الداخل ونفي إلى تونس، لكنه ورغم ذلك لم ييأس بل سخر نفسه للجهاد ومحاربة الجمود الفكري والعيش على أطلال الماضي، فكتب أبو إسحاق عن الجمعيات الصليبية وحاربها، وشدد على خطورة النشاط المسيحي ووقف أيضا أمام كل محاولات التغريب والغزو الثقافي في بداية النهضة عن طريق المستشرقين، وبأن ذلك هو الخراف واستنقاص من قيم الدين الإسلامي الحنيف¹.

نموذج من العلماء الذين تصدوا للغزو الثقافي الفرنسي (المفتي الكبابي):

سلط المؤرخ أبو القاسم سعد الله على دور المفتي الكبابي في التصدي للغزو الثقافي الفرنسي في الجزائر، فبحسب ما ذكره فإن أول اصطدام ثقافي (لغوي وديني) قد أخذ شكلا رسميا منذ سنة 1843م، أين وقف الشيخ الكبابي ضد قرارات ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة الفرنسية، ومحاولة فرض إدخال اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية².

وهو يرى بأن قرار الجنرال بيجو له هدفين، الأول اقتصادي ويتمثل في الزيادة في رصيد الميزانية الفرنسية، أما الثاني فهو السيطرة على العقول وأصحاب الآراء المضادة لكل التوجهات الفرنسية في الجزائر وللوجود الفرنسي في حد ذاته³.

لم يقف الجزائريون موقفا سلبيا من قرار بيجو، بل قاوموه وكانت مقاومتهم أول اصطدام ثقافي (ديني، لغوي) بينهم وبين الفرنسيين، حيث اعتمدت مواجهتهم للموقف الفرنسي على ركيزتين أساسيتين، فالأولى كانت ضد مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، أما الثانية فبالنسبة إليهم خرق

¹ - محمد ناصر، شخصيات جزائرية، مج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص151.

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص11.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، مرجع سابق، ص12.

اتفاقية 1830م والتي وقعها الفرنسيون والتزموا بموجبها عدم التعدي على مقدسات الجزائريين وعلمائهم¹.

تصدى المفتي مصطفى بن الكبابي (مفتي المالكية) للقرار الفرنسي، وكان هو الوسيط بين الفرنسيين والأهالي، فهو يرى بأن ضم الأوقاف هو مس بالمقدسات الدينية للشعب الجزائري، وبلغتهم العربية الرسمية الوحيدة لهم، كما فسّر تعليم أحد الفرنسيين لأولادهم علم الرياضيات هو وسيلة لتحريف شخصية الصّبية، وما ذلك إلا عملية توجيه لتعليم الأطفال نحو حضارة الغالب التي هم ضدّها، وهكذا وقع التصادم والتصدي حول قرار تعليم اللغة والرياضيات الفرنسية في المدارس القرآنية، مثلما وقع التصدي لعملية ضم الأوقاف للممتلكات الفرنسية².

ووجب التنويه هنا إلى نقطة هامة ركز عليها الفرنسيون، وهي توجيه الجزائريين إلى ثقافتهم دون سواها، وإلى مناهجهم التربوية فقط، فعدت بذلك المدارس التي تم إنشائها مدارس مرفوضة وسماها الأهالي بمدارس الشيطان، فازدادوا لهفة وتهاافتا على ثقافتهم الأصلية ومعاداة الثقافة الفرنسية، وشرع الأعيان في رفع العرائض والاحتجاجات لتعليم أبنائهم حتى تعليما فرنسيا، لأن السلطات الفرنسية سعت بكل ما أوتيت من قوة لتقويض عملية التعليم الجزائري، وفي هذا تم رفع بعض المطالب من طرف النواب الممثلين في المجالس، ومنهم محمد بن رحال، هذا الأخير الذي دافع عن التعليم الفرنسي وعن الثقافة العربية الإسلامية التي لا تتعارض مع الثقافة الفرنسية، وكانت لهم اتصالات مكثفة مع مسؤولين فرنسيين مقترحين مشروعاً من ثماني نقاط، كان أهمها إعادة تنظيم المدارس الفرنسية، ورفع عدد التلاميذ، وزيادة عدد المدارس وتعيين مدرسين فرنسيين ذوي الخبرة والمؤهلين³.

إن عملية الرضوخ التي آل إليها الجزائريون في ميدان التعليم سنة 1843م ليست حُباً في التعليم الفرنسي، ولكن حماية الأطفال من الجهل والامية، بل وعملية تجهيل الجزائريين ككل، فالشيخ الكبابي عارض المواقف الفرنسية على أسس دينية ووطنية، ورأى في ما فعله الفرنسيون

¹ - المرجع نفسه، ص 13.

² - نفسه، ص 14.

³ - سفيان لوصيف، مرجع سابق، ص 153-154.

تعديا على الدين الإسلامي بصفة عامة وعلى الأوقاف بصفة خاصة، وعلى لغة القرآن بصفة عامة¹.

¹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، مرجع سابق، ص14.